

البداية والنهاية

سفيان بن عيينة نظرت في أمره وأمر الصحابة فما رأيتهم يفضلون عليه إلا في صحبتهم رسول الله ﷺ وقال إسماعيل بن عياش ما على وجه الأرض مثله وما أعلم خصلة من الخير إلا وقد جعلها الله في ابن المبارك ولقد حدثني أصحابي أنهم محبوبوه من مصر إلى مكة فكان يطعمهم الخبيص وهو الدهر صائم وقدم مرة الرقة وبها هارون الرشيد فلما دخلها احتفل الناس به وازدحم الناس حوله فأشرفت أم ولد للرشيد من قصر هناك فقالت ما للناس فقيل لها قدم رجل من علماء خراسان يقال له عبد الله بن المبارك فانجفل الناس إليه فقالت المرأة هذا هو الملك لا ملك هارون الرشيد الذي يجمع الناس عليه بالسوط والعصا والرغبة والرهبة .

وخرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد فمات طائر معهم فأمر بالقائه على مزبلة هناك وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت ذلك الطائر الميت ثم لفته ثم أسرعته به إلى الدار فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة فقالت أنا وأخي هنا ليس لنا شيء إلا هذا الأزار وليس لنا قوت إلا ما يلقي على هذه المزبلة وقد حلت لنا الميتة منذ أيام وكان أبونا له مال فظلم وأخذ ماله وقتل فأمر ابن المبارك برد الأحمال وقال لو كيله كم معك من النفقة قال ألف دينار فقال عد منها عشرين دينارا تكفينا إلى مرو واعطها الباقي فهذا أفضل من حننا في هذا العام ثم رجع .

وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه من عزم منكم في هذا العام على الحج فليأتي بنفقته حتى أكون أنا أنفق عليه فكان يأخذ منهم نفقاتهم ويكتب على كل صرة اسم صاحبها ويجمعها في صندوق ثم يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب وحسن الخلق والتيسير عليهم فإذا قضوا حجتهم فيقول لهم هل أوصاكم أهلوكم بهدية فيشتري لكل واحد منهم ما وصاه أهله من الهدايا المكية واليمينية وغيرها فإذا جاؤا إلى المدينة اشترى لهم منها الهدايا المدنية فإذا رجعوا إلى بلادهم بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأصلحت وبيضت أبوابها ورمم شعنها فإذا وصلوا إلى البلد عمل وليمة بعد قدومهم ودعاهم فأكلوا وكساهم ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه وأخرج منه تلك الصرر ثم يقسم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم وهم شاكرون ناشرون لواء الثناء الجميل وكانت سفرته تحمل على بعير وحدها وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك ثم يطعم الناس وهو الدهر صائم في الحر الشديد وسأله مرة سائل فأعطاه درهما فقال له بعض أصحابه إن هؤلاء يأكلون الشواء والفالودج وقد كان يكفيه قطعة فقال والله ما طننت أنه يأكل إلا البقل والخبز فأما إذا كان يأكل الفالودج والشواء فإنه لا يكفيه درهم

ثم أمر بعض غلمانہ فقال رده وادفع إليه عشرة دراهم وفضائله ومناقبه كثيرة جدا